الإصلاح الإسلامى

فى أواخر شهر مايو (١٩٩٥) عُقد بمدينة هامبورج بألمانيا مؤتمر كبير عن « الإسلام فى العالم وفى ألمانيا » ، وإذ كنت مدعوًّا لهذا المؤتمر ، كأحد المحاضرين فيه ، فقد طلب منى المؤتمر أن ألقى محاضرة يكون عنوانها « هل يمكن إصلاح الإسلام ؟ » وقد ألقيت المحاضرة باللغة الإنجليزية ، مع وجود ترجمة فورية إلى اللغة الألمانية . وبعد المحاضرة التى استغرقت حوالى ساعة ونصف ، بدأت الأسئلة من جمهور الحضور ، وكانت المفاجأة أنهم جميعًا – وهم صفوة المجتمع الثقافى الألمانى – يجيدون الإنجليزية ، وأنهم استمعوا إلى المحاضرة منى مباشرة ، باللغة الإنجليزية ، ولم يلتفتوا إلى الترجمة الألمانية ، بهذا تنحى المترجم ، وبدأ الحوار بينى وبين الحاضرين باللغة الإنجليزية مباشرة واستمر لمدة ساعة ونصف أخرى .

وإذ كانت المحاضرة قد لقيت استجابة هامة من المجتمع الثقافى الألمانى ، ووسائل الإعلام الألمانية ، وتم نشرها باللغة الألمانية ، فإنه يكون من المهم أن ننشر عرضًا تقريبيا لها ، يراعى فيه الاختلاف بين اللغات ، كما يلاحظ فيه اختلاف جمهور القراء عن جمهور المستمعين الألمان . وها هو العرض العربى لأساسيات المحاضرة .

طلب منى المؤتمر أن ألقى محاضرة اختار هو عنوانها ليكون « هل يمكن إصلاح الإسلام ؟ » . وللإجابة على هذا السؤال فإن الأمر يقتضى الإجابة على أربعة أسئلة أخرى : (١) ما المقصود بلفظ الإسلام فى هذا الصدد ؟ (٢) لماذا يُراد إصلاح الإسلام ؟ (٣) هل يقبل التقليديون والمتطرفون أى إصلاح للإسلام ؟ (٤) كيف يكون الإصلاح ؟

أولاً : ما هو المقصود بلفظ الإسلام بصدد المحاضرة :

الإسلام لفظ عام شامل لا يمكن استعماله فى سياقات علمية أو دراسات ثقافية أو نقاشات سياسية دون تحديد للمقصود منه ، وإلا دارت السياقات واستمرت الدراسات وطالت النقاشات فى نقاط غير محددة ، وفى مواد غير منضبطة ، وفى مفاهيم غير واضحة ، مما يحدث اضطرابا فى الحديث ، وبلبلة فى الفهم وقلقلة فى النتائج .

فهناك الإسلام الدين ، والإسلام الشريعة ، والإسلام الفقه ، والإسلام التاريخ ، والإسلام الفلسفة ، والإسلام الفكر . والإسلام الحضارة .. وهكذا ، فإن للإسلام أوجها متعددة ومباحث مختلفة وأنشطة متباينة . فما المقصود بالإصلاح فى مفهوم السؤال الذى تجيب عنه هذه المحاضرة ؟

حتى يكون الأمر واضحًا ومحددًا فإن المقصود هو « الفكر الإسلامى » ، أى إنه يمكن إعادة صياغة السؤال الذى طرحه

المؤتمر ليكون كالتالى : « هل يمكن إصلاح الفكر الإسلامى ؟ » .

ثانيًا : لماذا يراد إصلاح الإسلام ؟ !

على أن السؤال « هل يمكن إصلاح الفكر الإسلامى » لابد أن يتداعى إلى سؤال آخر أهم وأخطر هو « لماذا يراد إصلاح الإسلام ، أو بمعنى أدق : الفكر الإسلامى ؟ » . والإجابة على هذا السؤال قد تُقدم عشرات المسائل ، غير أن أهم هذه المسائل ، وأخطر الأسباب فى تقديرى ، هى ثلاثة :تحول الإسلام إلى أيديولوجيا ، وغلق باب الاجتهاد الفقهى ، وضرب العقلية الإسلامية ومنعها من أى تفكير علمى .

(أ) فمنذ عهد الخليفة الرابع – على بن أبى طالب (٦٥٥ – ٦٦٠ م) بدأ صراع سياسى على السلطة (وكانت آنذاك الخلافة الإسلامية) بين فرقاء ثلاث : فريق الخليفة على ، وفريق المطالب بالخلافة حاكم الشام معاوية بن أبى سفيان ، وفريق الخوارج (أو الشراة) وهم جماعة انشقت من فريق الخليفة على ، وصاروا أعداء له ولخصمه معاوية .

وفى هذا النزاع السياسى فإن كل فريق لجأ إلى الشريعة ، وإلى القرآن ، يستخدمه فى تبرير موقفه وتسويغ تصرفه وإضفاء الشرعية على أعماله ، ودمغ خصومه بالكفر والإلحاد ؛ ومن هنا بدأت الأيديولوجيا الإسلامية ترسخ وتتوطد وتغير معالم الفكر الدينى تغييرًا تاما ؛ إذ صار هذا الفكر يخدم الأيديولوجيا ويبررها .

فالإسلام شريعة عامة إنسانية ، ليست مشروعًا سياسيًا ، ولا هى نظام حكم ، ولا هى حزب لجماعة ، ولا هى احتكار لعصبة ، فإذا ما حدث أن تداخلت السياسة مع الدين ، أو تخالطت الحزبية مع الشريعة ، تحول الدين وانتهت الشريعة إلى أن يكونا أيديولوجيا ، أى معتقد جامد (دوجما) ، سياسى أساسا وحزبى أصلا ، شمولى صارم (ديكتاتورى) ، يمنع أنصاره من أى جدل أو نقاش ، إذ يفرض عليهم مبدأ « السمع والطاعة » باسم الدين وبسيف الشريعة ، ويدمغ من يخرج على هذا المبدأ ، كما يصم خصومه ، بالكفر والإلحاد .

الشريعة سمحة تجيز ، بل تدعو إلى ، وجود آراء مختلفة ، وقيام مذاهب متباينة ، وظهور آراء متعددة ؛ أما الأيديولوجيا فإنها تركن إلى الوطنية أو تتحصن بالدين ثم تقتصر على ما يؤيدها وما يعضدها ، حتى وإن حرَّفت وزيَّفت ، ثم تزعم أن ما تركن إليه وتتحصن به هو المطلق ، فلا يجوز لأحد أن ينقده أو يبدى رأيا مخالفًا أو يذكر قولاً معارضًا ، وإلا عد خائنًا أو كافرًا ملحدًا جزاؤه القتل .

هكذا ، تحولت الشريعة إلى أيديولوجيا ، وأصبحت كل نظم الحكم – على مدى التاريخ الإسلامى – تستند إلى أيديولوجيا خاصة بها ، اتبعها فى ذلك حواشى الحكام والإداريين وفقهاء السلطة . وكان الحاكم – خليفة أو سلطانًا أو ملكًا أو أميرًا –

يستند فى تبرير الأيديولوجيا وإضفاء شرعية دينية عليها – إلى أنه خليفة الله أو ظل الله على الأرض أو المعين بنعمة الله أو المنفذ لأحكام الله وهكذا ، بينما صارت المعارضة دينية أيديولوجية كذلك ، تقوم على اتهام الحاكم بالكفر ، ووصم المجتمع بالإلحاد ، تعتمد فى ذلك على أنه لا يطبق ما أنزل الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

ولم تقبل جموع العامة من المسلمين هذا الاستغلال السياسى للدين والتوظيف الحزبى للشريعة ، فانسحبت من ساحة الحياة العامة وانكفأت على معايشها اليومية ، وقد صار الدين لديها مجرد أداء للشعائر ، كما أصبحت الشريعة عندها صيغة تختلط بالتراث الشعبى (الفولكلور) ، وتتجلى فى الموالد والأذكار وزيارة الأضرحة واحتفالات المقابر والتبرك بالأولياء وأداء النذور .

بهذا اغترب الفكر الدينى الصحيح بين مغالاة السياسة والحزبية من جانب ، وجهالة الاتجاهات الشعبية من جانب آخر .

(ب) لأسباب سياسية فى الحقيقة ودينية فى الظاهر فقد أمر الخليفة – فى القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى – بأن يقتصر العلماء على دراسة أقوال العلماء الذين سبقوهم ، وأن يكفوا عن أى اجتهاد بالرأى ، وهذا هو ما يسمى بقفل باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى (السنى) .

ومنذ هذا الوقت تجمد الفقه عل. ما كان عليه وصار إليه ،

ولم يعد من حق أى عالم أو فقيه أن يبتدر رأيا أو أن يبتدئ فكرًا ، بل عليه أن يستخرج من القديم حلولا لأى وضع جديد ، فانتهى الأمر إلى أن يصبح الجميع مقلّدين غير مجددين .

ومادام أى تجديد يعتبر تحريفًا ، وأى إبداع يعد ابتداعًا ، فقد انغلقت أبواب الاجتهاد الفقهى ، وقفلت منافذ الإبداع الشرعى ، ووقف تقدم المجتمع الإسلامى عند القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، لا يتحرك ولا يريم .

(جـ) ظهر فى تاريخ الإسلام رجل هو الأشعرى (٨٧٣ – ٩٤١ م) أدى به رأيه ، نتيجة ظروف سياسية أوقعته فى محنة شديدة ، إلى أن يقدم مذهبًا ، أهم ما فيه أن الله قادر على كل شىء وخالق كل شىء ، وليس للطبيعة عنده فعل ما .. ، أما أفعال الإنسان ، فإن الله يفعلها ويخلقها فيه ، فينسبها الإنسان إلى نفسه ، ويزعم أنها من كسبه .. » .

وتلا الأشعرى أبو حامد الغزالى (١٠٥٩ – ١١١١ م) فقال إن الله سبب لوجود العالم ، وانه خلقه بإرادته وقدرته ، وأنه لا توجد إلا علّية واحدة ، هى علية وجود المُريد ، أى الله . أما علّية الطبيعة ، أو ما تلحظه المشاهدة من وجود صلة بين شيئين كإضرام النار واشتعالها فى الأشياء من ثمّ ، أو إحداث إصابة تعقبها وفاة ، أو رش ماء يتبعه بلل ، ذلك كله أمر منكور ومردود إلى علاقة زمانية بين الشيئين ، أى حدوث أمر متتابع بينهما ،

فليست النار هى التى أشعلت الأشياء ، ولا الإصابة أحدثت الموت ، ولا الماء أنشأ البلل ، إنما ذلك كله تهيؤ فى ذهن الناس لحدوث هذه بعد تلك ، والفاعل فى الحقيقة والسبب فى الواقع ، هو الله سبحانه ، ولا هذا الشيء أو ذاك .

ونتيجة لانتشار فكر الغزالى ، وكتابه إحياء علوم الدين ، فقد انتهت تمامًا – فى العقل الإسلامى – فكرة السببية أو وجود قوانين ثابتة مطردة لحكم الأشياء ، كما انتهت كذلك فكرة حرية الإرادة ، ومبدأ مساءلة الإنسان عما يفعل ؛ فمادام كل فعل هو لله فالإنسان مجبور عل ما يفعل ولا محل لمساءلته أبدًا .

وهكذا تضافرت العوامل الثلاثة السالفة : تحول الدين إلى أيديولوجيا ، وقفل باب الاجتهاد الفقهى ، ومنع العقل الإسلامى من التفكير على أسس من السببية ونظام من العلية ، فأدى ذلك إلى جمود الفكر الإسلامى واغترابه عن روح الدين داخل الشريعة ، مما دعا جميع المفكرين المسلمين – منذ القرن الماضى – إلى الإلحاح المستمر على ضرورة تجديد الفكر الدينى الإسلامى ، أو حتمية قيام إصلاح إسلامى شامل حتى يستطيع المسلمون مواكبة حركة الحياة الجارية ومعاصرة أساليب الحضارة القائمة .

ثالثًا : هل يقبل التقليديون والمتطرفون أى إصلاح للإسلام ؟

التقليديون أناس تشكلت عقولهم وتركبت نفوسهم من التراث السائد ، فأصبح هذا التراث هو رؤيتهم التى ينظرون إلى العالم

من خلاله ، كما صار هو مثلهم الأعلى ونموذجهم الأمثل . ومن شأن هذه العوامل أن تكبح قواهم الفكرية فلا يستطيعون الخروج من القوالب التى صبت فيها ، ولا يقدرون على الانفلات من العناصر التى ينبغى أن يثوروا عليها ويعملوا على تغييرها ، فمع إدراك بعض المتميزين فيهم أنه لابد من التجديد والإصلاح ، فإنهم غالبًا ما يكونون عاجزين عن أى تجديد أو إصلاح ، لانحباسهم فيما يراد تجديده أو إصلاحه ، ولافتقادهم إلى الأدوات التى تؤهلهم إلى هذا وذاك .

على أن الأخطر من ذلك أن هؤلاء التقليديين الذين لا يعملون فى سبيل التجديد أو الإصلاح يأبون على غيرهم أن يقوم بهذه المهمة بدلا منهم ؛ إذ فى ذلك نزع لسلطانهم وتهديد لمكانتهم ، فضلًا عما فيه من معنى إثبات قدرة غيرهم على ما عجزوا هم عن تحقيقه ، لهذا فإنهم يكونون عقبة كأداء فى سبيل أى إصلاح أو تجديد ، وغالبًا ما يعملون على تهديد أى مجدد أو مصلح — ولو كان منهم — ووصمه بالخروج عن الملة ، وتقديم البدع ، ومحاربة الدين ، مستعينين فى ذلك بالنصوص التى وضعت فى عصور التخلف والانحطاط ، والتى هى الأساس فى طلب التجديد والدعوة إلى الإصلاح ، لتغييرها وتخطيها وتجاوزها تمامًا .

أما المتطرفون فهم جماعات أو أشخاص لا يتعلقون بالدين أو الشريعة ، لكنهم يتشبثون بالأيديولوجيا السياسية التى تستخدم الدين فى تبرير أهدافها وتستغل الشريعة فى تحقيق أغراضها ، وهم

قد نُشئوا فى ذلك ، ودرجوا عليه فأحدث لهم هذا نوعا من « غسيل المخ » فصاروا يطابقون بين أيديولوجيتهم والدين ، ويخالطون بين جماعاتهم والشريعة ، فاضطرب الأمر لديهم ولم يعد عندهم تحديد واضح أو رؤية سليمة أو نظرة نافذة .

ومع افتقاد الأيديولوجيين (أنصار الإسلام السياسى) لعناصر الحكم الصحيح على الأشخاص والأشياء والأفكار والآراء ، فإن مصالح بعض منهم تدفعهم إلى الإصرار على هذا الخطأ والاستمرار فى هذا الانحراف ، بحيث تصبح أى محاولة لتخليص الدين من الأيدلوجيا أو فهم الشريعة بعيدًا عن الأهداف السياسية والأغراض الحزبية – فى تقديرهم – عملا منافيا للدين ، ونهجًا مخالفا للشريعة . لقد أصبح الخطأ لديهم صوابا والصواب خطأ ، وفى هذه المعايير المقلوبة رأسا على عقب ، فإنهم يحولون دون أى إصلاح للفكر الإسلامى أو تجديد للروح الدينى ، لأن من شأن هذا وذاك أن يقوض وجودهم وأن يهدد مصالحهم وأن يدفعهم إلى تغيير معتقداتهم الأيديولوجية تغييرًا تاما ، وهذا أمر ليس سهلا ولا هو فى قدراتهم الذاتية .

ومع تقدير كل ذلك فعلى المستنيرين أن يعملوا جادين وأن يكافحوا مصرين على تخليص الدين من الأيديولوجيا وتجريد الشريعة من الجمود واللاعقلانية ، حتى يستقيم الإسلام الصحيح وتستوى الشريعة الأصلية .

رابعًا : كيف يكون الإصلاح ؟

يرى كثير من المسلمين ضرورة تجديد الفكر الدينى وتحديث العقل الإسلامى ، خاصة مع ما يحدث للمسلمين فى بلادهم وفى خارج بلادهم ، نتيجة لاختلاط التدين بالتطرف (وهو أثر طبيعى وحتمى للأيديولوجيا الإسلامية أو الإسلام السياسى) غير أنه نظرًا للمحاذير التى سلف بيانها فإن التجديد والتحديث يدخل فى باب الكلام أكثر مما يدخل فى مجال الفعل ؛ ذلك أن أعدادًا غفيرة من المسلمين ، وخاصة ذوى المصالح والتقليديين والأميين ، يأملون أن يحدث تجديد الفكر الدينى دون تجديد حقيقى للفكر الدينى ، أى أنهم يشترطون لحدوث التجديد وقبوله ألا يحدث أى تجديد ، وتلك هى المفارقة الحقيقية فى العالم الإسلامى .

ومع ذلك فإننا نرى أن يكون إصلاح الفكر الإسلامى وتجديد الفكر الدينى وتحديث العقل الإسلامى ، باتباع ما يلى :

١ – **تحديد الألفاظ والمعانى** : فإذا ما وضع لكل لفظ مما يستعمله المسلمون تعريف جامع مانع (بلغة المناطقة) فإن ذلك سوف يؤدى إلى ضبط المصطلحات ووضوح المفاهيم وعدم اضطراب المعانى ، مما يؤدى – لا محالة – إلى إصلاح كبير فى الفكر الإسلامى .

وعلى سبيل المثال فإن لفظ الشريعة يعنى فى القرآن الكريم : الطريق ، السبيل ، المنهج وما ماثل ؛ لكن لعدم تحديد المعنى منذ

البداية فقد تطور وتغير حتى أصبح يعنى الآن الأحكام القانونية ، ما ورد منها فى القرآن الكريم وما صدر عن الفقهاء والعلماء والقضاة . واختلط هذا بذاك فلم يعد أغلب المسلمين يستطيعون تحديد المقدس من البشرى ، ولا ما جاء من الوحى مما ورد فى أعمال الناس . وتحديد لفظ الشريعة – مثلا – سوف يؤدى إلى بيان وتأكيد أن حوالى ٩٠٪ مما يقال إنه شريعة إسلامية هو فى الحقيقة فقه إسلامى .

ومثل لفظ الشريعة لفظ الحكم الذى لا يعنى فى القرآن الكريم سياسة أمور الناس ، بل يفيد القضاء فى الخصومات أو الرشد والحكمة .

٢ – تفسير القرآن الكريم وفقا لأسباب التنزيل وتبعًا للظروف التاريخية ؛ ذلك أن أكثر ما أصاب الفكر الإسلامى من تحريف وانحراف جاء نتيجة لتفسير آيات القرآن على عموم ألفاظها ، وهو أسلوب اتبعه الأيديولوجيون ثم تبعهم فيه التقليديون مما أدى إلى تفسير القرآن الكريم على غير ما أراد التنزيل ، واقتطاع جزء من آية لاستعماله كشعار للسياسيين والحزبيين والمتطرفين . وأسباب تنزيل القرآن غالبًا ما تكون واضحة فى سياق الآيات نفسها ، وإلا فهى مذكورة فى التراث بنفس الأسانيد والقوة التى يقوم عليها كل التراث الإسلامى ومنه أحاديث الآحاد ، وهى أغلب الأحاديث المروية عن النبى ﷺ .

أهم مثل فى ذلك أن الخوارج على المجتمع ، والمتطرفين

والإرهابيين على مدى التاريخ ، يرفعون جزءًا من آية ليصموا الحكومات والمجتمعات بالكفر والإلحاد بما يبرر لهم الاغتيال والعنف والتدمير ، وهذه الآية هى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . ولابد أن يجد الطغاة والبغاة أى مطعن على أى مجتمع أو أى نظام فيحكمون عليه بالكفر وفقالاستعمال الآية على عموم ألفاظها ، أما إذا نظر إلى أسباب تنزيل الآية ، وهو وارد فى سياق الآيات السابقة والتالية يتبين أن لها معنى آخر تمامًا ، ففى القرآن ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ .

إن تفسير آيات القرآن الكريم وفقًا لأسباب التنزيل وتبعًا للظروف التاريخية يؤدى إلى تقديم تفسير جديد أصح وأدق وأضبط من التفسير الذى ينبنى على مجرد التفسير اللفظى .

٣ – الفصل بين السياسة والدين : ذلك أن السياسة ما إن تدخل على الدين إلا حولته إلى أيديولوجيا (على المعنىالسالف بيانه) وما إن تتصل بالشريعة إلا وغيرت من صميمها وحولت من مفاهيمها . فالسياسة تخدم نفسها وأصحابها ولا تعبأ بأى قيمة أو مبدأ ؛ بل تستغل الدين لأغراض حزبية وتوظف الشريعة لأهداف شخصية .

إن العمل السياسى ينبغى أن ينظر إليه ويقيّم باعتباره عملا بشريا سواء كان من جانب الحكومة أم من جانب المعارضة ، حتى لا تتهم الحكومة المعارضين بالكفر والإلحاد (وربما طبقت عليهم حد الحرابة ، كما حدث على مدى التاريخ) ولا تتهم المعارضة الحكومة والمجتمع بالكفر والإلحاد فتسوغ بأسباب من الدين أى فوضى أو اغتيال أو دمار .

٤ – **تحرير الفقه الإسلامى** : فحالة الجمود التى صار عليها هذا الفقه منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حبست العالم الإسلامى فى آراء وأفكار وفتاوى صدرت منذ عشرة قرون لتلائم مكانها وتوائم زمانها .وقد أصبح تحرير الفقه الإسلامى ضرورة لابد منها لتحرير الفكر الإسلامى ذاته ، والإنسان أينما كان . وقد قام بعض المستنيرين بجهود مهمة وملحوظة فى هذا الصدد ، والمأمول أن يتكاثر الاجتهاد الصحيح ويتزايد الابتكار الرشيد ، حتى يصبح الفقه الإسلامى رائدا للتقدم وحافزًا للعمل ودافعًا للإنسانية .

٥ – **تقويم العقل الإسلامى** : فهذا العقل – فى غالبه – منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يفتقد التفكير المؤسس على السببية ، والذى يربط الأسباب بمسبباتها ، كما يفتقر إلى الفهم المستند إلى العلية ، أى الذى يبحث عن علل الأشياء ودواعيها ودوافعها ، وبغير التفكير السببى لا يقوم علم بل ينحدر العقل إلى الخرافة ، ودون التعليل الصحيح لا يستوى منطق ولكن

يسقط الفهم فى مهاوى التخليط .

لابد للعقل الإسلامى من أن يعود إلى أصله الذى رسمه له القرآن وحدده له الإسلام الصحيح ، فيبحث عن الحقيقة بنفسه – بعد علم ودراسة – ويلتزم المنهج النقدى (أو الفحصى) الذى ينأى عن التسليم ، ويفحص كل شاردة وواردة ، دون أن يكتفى بالفتاوى المعلّبة أو بالآراء سابقة التجهيز ، والتى تريد أن تحكم الناس بالجهل لتحصل على السلطة وتجبى المال .

تلك هى أهم الأسباب اللازمة لإصلاح الفكر الإسلامى ، نرجو أن تجد دراسة بغير تحيز ، وتفهمًا دون غرض ، وبحثًا لا اتهام فيه ولا تهديد .